خالدة سعيد: حركية النقد النسوي بين حوار الماضي وجدلية الحاضر فيض المعنى أنموذجا

الأستاذة: نجاح منصوري
قسم الآداب واللغة العربية
كلية الآداب واللغات
جامعـــة محمد خيضر- بسكـــرة

خالدة سعيد كاتبة وناقدة لبنانية من أصل سوري، نشرت أولى مقالاتها في مجلة " شعر" منذ 1957، تخرجت من الجامعة اللبنانية، ومن جامعة السوربون، ودرست في المدارس الثانوية اللبنانية، وفي الجامعة اللبنانية بين 1958 و1996.

من أعمالها:

- البحث عن الجذور، دار مجلة شعر، بيروت 1960.
- حركية الإبداع، دار الفكر، بيروت 1982.
- الحركة المسرحية في لبنان 1960-1975، لجنة المسرح العربي، 1998.
- الاستعارة الكبرى في شعرية المسرح، دار الآداب، 2007.
- في البدء كان المثنى، دار الساقي، 2009.
- منير أبو دبس والحركة المسرحية في لبنان، دار نلسن، 2011.

إضافة إلى كتابيها" يوتوبيا المدينة المثقفة وفيض المعنى، دار الساقي 2012، 2014.

تمثل خالدة سعيد كاتبة وجها نقديا نسويا بارزا بعطاءها الفكري والنقدي المتميز، فسمها يرتبط ارتباطا وثيقا بمرحلة ثقافية فكرية، أدبية، جمالية حرجة وحساسة جدا خاصة في سنواتها الأولى والتي ظهرت من خلال مجلة شعر.

هذه المرحلة الثقافية المتميزة شكلا ومضمونا، ماضيا وحاضرا، أدبا و شعرا، نقدا تقليديا ورؤية حداثية متميزة. أذ تمخضت هذه المرحلة المتميزة بعطاءها الشعري والنقدي

المتميز، عن حداثة في تناول مساءل الإبداع وعلاقته بالموروث العربي القديم وكيفية تجاوزه إلى أشكال أدبية جديدة تواكب العصر وتحاول ردم الهوة السحيقة بين أشكال الأبداع من قصيدة عمودية وقصيدة التفعيلة والقصيدة الحرة وقصيدة النثر وكذا كيفية مواكبة النقد.

كل هذا المخاض والحراك الأدبي والثقافي طرح العديد من الإشكالات المعرفية والثقافية والنقدية ومن أبرزها:

* الموضوعات الأدبية مثل طبيعة الالتزام وقضايا الشكل والمضمون والحداثة في الشعر والرواية والقصة والمسرحية وكذا قضايا الثقافة المختلفة، التي ظهرت وتكرست في صفحات مجلات" شعر"، والآداب، والطريق، والكاتب وغيرها.....

* الموضوعات النقدية الثقافية في جل كتبها الأنفة الذكر خاصة إشكاليات« المؤسسات الثقافية الرائدة التي نهض بها رواد، مثقفون في لبنان ك الندوة اللبنانية، التجمع الفيروزي الرحباني، مجلة شعر، مجلة مواقف ودار الفن والأدب»[1].

وما طرحته الناقدة من تساؤلات حول تأثير كل هذه المجامع الثقافية اليوم في حركية التغيير الشامل والجذري للعصر الذي نبعت وأينعت منه.

فالناقدة" خالدة سعيد" هي إحدى رموز هذا العصر الغابر الذي جمع بين كفيه الممارسة النظرية النقدية المختلفة والتجربة الشخصية الميدانية،« أين كانت شاهدة على تجارب ثقافية تميز بها عدد من المثقفين، فقد عرفت هذه المؤسسات عن قرب و نشطت في إطارها»[2].

هذه المؤسسات الثقافية« كانت مبادرات فردية، نهض بها أفراد بلا دعائم، لا اقتصادية في ولا طوائفية أو سياسية أو فئوية من أي نوع، كانوا أفرادا ينتمون للثقافة وإلى لبنان. أسسوا هامشا ثقافيا واسعا للجميع، ضد منطق النزاع وخارج ساحاته»[3].

هذا هو الجانب الثقافي للكاتبة الناقدة" خالدة سعيد" أين حاولت تأريخ هذا الحراك الثقافي الهامشي في دراسة معمقة لكل الجوانب التي أحاطت بهذه المؤسسات وهذا في كتابها الموسوم بـــ:" يوتوبيا المدينة المثقفة".

نعود الآن إلى حركية النقد عند الناقدة" خالدة سعيد" ونطرح الأسئلة المشاكسة والمغايرة التي بادرت أذهاننا حول المجهود النقدي الذي حاولت الناقدة تكريسه خصوصا في كتابها" فيض المعنى":

1- ما الرؤية النقدية التي حاولت الناقدة" خالدة سعيد" تكريسها في هذا الكتاب؟

2- ما الدلالات والمرجعيات والرؤى والتصورات التي تنشدها وتبحث عنها الناقدة في فيض المعنى، وأي معنى حاولت الكاتبة اصطياده في فيض المعنى؟

3- أي زاوية يمكن الولوج عبرها على عتبات وأبواب ومداخل الناقدة خالدة سعيد؟

وقبل الخوض في الإجابة عن هذه الإشكالات المعرفية سنحاول أن نسأل عن بداية ومسار النقد عند الناقدة خالدة سعيد، وما العلائق الابستيمولوجية والشخصية بالشاعرتين " زليخة أبو ريشة" و" سنية صالح"، وأي رؤية فكرية ونقدية وشخصية تقصتها الناقدة في دراستها للشاعرتين في كتابها فيض المعنى؟

أولا: بداية مسار النقد عند الناقدة" خالدة سعيد":

لم تكن البداية واضحة وموجهة بالنسبة للناقدة، وإنما كان دخولها لعالم النقد عبر " مجلة شعر"، فالنقد كمنطلق لم تتبناه الناقدة في البداية؛ إذ تقول في حوار لها:« الآن، لا استطيع تبني عمل نقدي في تلك المرحلة بكامله، أتبنى المنطلق. إذ ما يزال منطلقي منذ أيام مجلة" شعر" هو نفسه حتى الآن. لم آت إلى النقد من نظرية نقدية أو تصور مسبق للمنهج النقدي بل لم أكن أتصور أنني سأكتب النقد»[4].

تؤكد الناقدة عبر هذا الحوار إلى أن النقد يجب ألا يرتبط بمنهج معين أو تصور مسبق، وإنما هو دخول لمغامرة النص الأدبي دون مقدمات أو تصورات أو أسلحة خارجية عن مضمون النص وزواياه وأركانه؛ فالنص وخاصة الشعر وكيفية تذوقه، والسكن فيه، والارتحال إليه والذي أشرع النوافذ الفكرية والمعرفية للناقدة لدخول عالم النقد.

تقول في هذا المقام:« كنت أرسم واكتب القصة والتأملات وادرس الموسيقى وأحب الشعر. بدأت النقد بالمصادفة تقريبا. لا اعرف ربما كان حبّي للشعر أقوى العوامل في حياتي. أقدر أن أتحدث عن علاقة خاصة بالشعر»[5].

كانت الناقدة تتذوق الشعر، وتلتمس منه نارا ونورا، وجودا وحياة، كتابة مختلفة ورؤى مغايرة، فدنيا الشعر هي المفتاح الذي سكنها طويلا، وفتح شهيتها للدخول لعالم النقد؛ فالشعر برأيها« شيء كالإيمان بقدرة الشعر على تحرير الإنسان، على التوليد المتجدد للآمل، على مواجهة الموت والزمن. نشأت وتربيت مع هذه العلاقة. ولَعِي بالشعر سابق لأي ولع آخر في حياتي الاجتماعية والسياسية»[6].

فهذه العلاقة القوية والمتميزة للشعر والمتفردة، قد بثت روحها في ذات الكاتبة/ الناقدة" خالدة سعيد" فأثرت في مختلف مرجعياتها وهي الحافظة لذكر الحكيم منذ سن مبكرة، أين حفظها والدها القرآن كما حفظها الشعر، وهذا ما أثر بشكل مذهل على حبّها للشعر تقول:« منذ سن مبكرة حفظني والدي الشعر، كما حفظني القرآن، ربما من هنا تولد لدي هذا التهيّب الرهيب، هذا الحب للشعر. وكنت أعيش في مناخ التململ وطرح الأسئلة على التعبير الأدبي»(7).

فالمناخ البدئي والوجودي والكوني الذي أحاط بالناقدة قد أثر بشكل كبير على كيفية رؤيتها للحركات الشعرية الجديدة، وهذا ما فعلته في سن الثامنة عشر أين دخلت عالم السياسة و« بتأثير أدونيس، كان هاجسي الأول الحرية والتطور، وخاصة على صعيد التعبير عن الإنسان»(8).

هذا الدخول كان له خلفياته على رؤيتها المعرفية والثقافية في ذاك الزمن، وانعكس انعكاسا كبيرا على موقفها النقدي، وهذا ما ظهر في جلّ كتاباتها خاصة كتابها" يوتوبيا المدينة المثقفة"، والسؤال المطروح: ما الآراء التي ترتبت عن هذا الموقف السياسي والثقافي؟ وعلاقته بكتابها الأول" البحث عن الجذور"؟

تقول الكاتبة" خالدة سعيد" في هذه المسألة:« من هنا جاء موقفي من الحركة الشعرية الجديدة، في مطلع الخمسينيات، موقف التزام مرادف للالتزام السياسي. ورأيت أفضل السبل للدفاع عن الحركة الشعرية الجديدة والابتعاد عن الجدل والديماغوجية وتقديم النصوص بذاتها لأنها هي القول الفصل. هكذا اندفعت" للتوسط" بين شاعر الحديث والقارئ. ولمّا أردت أن استعين بمعارفي السابقة، وخبراتي المستقاة من كتب النقد أو الأساليب التي كانت تتبع للنقد(ولا أقول مقاربة النصوص). وجدت أنها لم تسعفني(...) هكذا جئت إلى النقد وأنا لا أملك إلا منطلقي أي الإيمان بالحرية وتاريخية التعبير، والتطور المترابط للبنى والأشكال الاجتماعية السياسية والأدبية(وهو ما عبّرت عنه بوضوح في مقدمة كتابي الأول" البحث عن الجذور")»(9).

لقد حاولت الناقدة خالدة سعيد البحث عن شكل جديد من الممارسة النقدية، وهذا ما كرّسته في كتابها الموسوم بـــ" البحث عن الجذور"، وهو رؤية فكرية ومعرفية لمفهوم سياسي آمنت والتزمت به، وهو مفهوم الالتزام، إذ نجد أن الحركة الشعرية في ذاك الوقت

قد تشعبت أساليبها وتطورت باتجاه الحداثة الشعرية، ما حدى بالناقدة لمواكبة هذا التطور عبر التوسط بين قطبي العملية التواصلية الإبداعية، الشاعر والقارئ ؛ إذ حاولت أن تمسك برباط النقد وتطوعه ليلج مداخل الحالات الشعرية الجديدة.

فمنطلقها كان البحث في تاريخية التعبير الأدبي، والترابط المذهل للبنى والأشكال الاجتماعية السياسية والأدبية، لكن الذي حدث هو تعديل الناقدة لمسارها النقدي بعد كتابها " البحث عن الجذور" إذ قامت بمراجعة فكرية ونقدية لما كان عليه مسار رؤيتها للشعر ومنطلقاته فيما بعد. تقول« مع ذلك، من تلك المرحلة لا أتبنى من دراساتي غير مقدمة " البحث عن الجذور" ومقالتين في هذا الكتاب، الأولى دراسة نصيّة(بتاريخ 1957) لقصيدة" البعث والرماد" لأدونيس. وفيها يظهر بوضوح البحث عن الانتظام الدلالي والعلائق الضدية والعناية بالجزئيات وتشكلها بنية القصدية، إضافة إلى ربط الرؤيا بالأفق التاريخي لمرحلة، والثانية هي دراستي لمجموعة" محمد الماغوط"(حزن في ضوء القمر)، وفيها تلمُّس لأشكال ومستويات من الصور الشعرية. وبالطبع ما زلت أتبنى دراستي لمجموعة" لن" لأنسي الحاج وهي بتاريخ 1960»[10].

فكتاب البحث عن الجذور أول كتاب نقدي للناقدة، حمل بداخله رؤية وتطلعا ونقدا لظواهر أدبية أحدثت ثورة في جسد الحركة الشعرية؛ فجاء كتابها انعكاسا للحالة والوعي التاريخي للحركة الشعرية وأبعادها وارتباطاتها بتطور البنى السابقة.

هذا التوجه والمسار النقدي للناقدة ركّزت فيه على كيفية نقد النصوص من داخلها؛ أي البحث في أدبية النص من خلال البنى النصية، وهذا ما استدعى تعديلا في مسار النقد لديها؛ إذ أنها أبقت على مقالتين نصيتين لنصين متميزين هما لـــ" الشاعر أدونيس" و" الشاعر محمد الماغوط" وعلى مقدمة كتابها.

هذا التغير في مسار النقد جاء مواكبة لحركة الحداثة الشعرية، وكذا محاولة التقرب من النصوص لا من الشاعر المنتج للنص، تقول" خالدة سعيد":« لا بد من الإشارة إلى أن الانطلاق من النص بذاته يقع في صميم فكر الحداثة، لأنه ترجمة منهجية للاقتراب من الأشياء بذاتها ومعرفتها في ذاتها، واستنباط القوانين منها والتخلي عن سلطة المرجع»[11].

فالنص الأدبي هو مغامرة وانفتاح للمجهول، ورؤية تفصيلية لوقائع مغايرة للوجود اليومي؛ فهو هروب من مرجعيات خارجية ودخول في علاقة عشق، وحب، وغرام، وتصوّف مع النص.

إنه رؤية وجودية للآخر/ الشاعر في حضرة المحبوب الذي يتسلح بكل مفاتن الوجود، من أبنية مضمرة، وتأويلات مستحدثة، فقراءة النص الأدبي لها طقوسها وجمالياتها، وهذا ما تؤكد عليه الناقدة إذ تقول:« لم تكن القراءة عندي، في بداية مغامرتي معها، غير وعد ودعوى، لم تكن غير دعوة سحرية تفتح لنا نافذة في الأسوار التي أحاطت بي في سنوات الخيال؛ نافذة يتشرد عبرها فكري، وارسم حياة في حياة. وعبر هذه النافذة سمعت، دهشت، اختبرت، تحيّرت، اغتنيت(أو سافرت)...»[12].

فالنقد هو دعوة للسفر في مجهول آت من دنيا الإبداع اللامتناهي، أنها دعوة لفتح كلّ نوافذ الروح والرؤيا والخيال لمعانقة الحيوات التي تسكن النصوص، وعبر هذه النوافذ أشرعت الناقدة كل حواسّها من سمع مرهف، ورؤية نافذة، وحيرة عقل منفتح، وسفر في غنى اللغة، واختباراتها المتعددة، فالنص الأدبي عندها هو حياة« فيما لا يقوله إلا النص ذاته، وهي ما لا يقوله النص منثورا»[13]، وهو« مشروع المبدع، وان كان في الوقت نفسه، مشروعا– وحتى انفجارا– داخل بحر اللغة وتاريخها ومحمولاتها وظلالها؛ انفجار فيها وبها داخل الثقافة والتاريخ العام والشخصي والمؤثرات الراهنة»[14].

إن رؤية الناقدة" خالدة سعيد" للنص الأدبي هي جمع بين القراءة ومفاهيمها والياتها مع البحث عن كينونة الغياب في كل النصوص سواء أكانت شعرا، نثرا، قصة، رواية، قصيدة نثر، مسرحية، غناء، هي رؤية خِلافيَّة لمشروع المبدع، هذه الرؤية تنبع من انفجارات اللغة وتاريخها العميق، وهي قبض على جمر النص والشرر الذي يلتهب في أركانه المغيبة والغائبة، أنها بحث في المتعة واللذة كلذة الفاكهة والشجرة المحرمة، شجرة نيتشه، أو تفاحة المعرفة. فالنقد عندها هو سيل جارف، وتحول دائم، ونشدان للتطور والتجدد والانبعاث، هو البحث في الكتابة؛ أي القراءة فــ« القراءة مثل الكتابة بحث عن سر، استفهام، استقصاء، مساءلة لما نتذكر، وما نعرف، لما نظنّ أننا نعرف، هي عذاب السر الذي لا يسلم مفتاحه ولا بد من المغامرة في طلبه»[15].

فالنقد هو مغامرة محفوفة المخاطر، هي سلك دروب مغيبة في ثنايا الوجود النص للإبداع بمختلف أصنافه، هو عذاب روحي، ومحاولة اكتشاف واعتراف بجواهر النص الشعري، فـ« قراءة الشعر، مثل الكتابة، مغامرة وخطر، طريق لا نعرف نهايته ولا نعرف إن كان منه وصول طريق يبدأ ولا نعرف أين ينتهي وكيف»(16).

إنه رحلة تبدو لتختفي، تسكن لتنفجر، تتلون لتفرد،« أنها رحلة تضيع فيها الحدود بين الوهم والواقع (...) رحلة تتخفى فيها الحقائق وتباغتنا بكل الأقنعة أو تأخذنا في المتاهات، ما دام التعدد هو من أسرار النص الإبداعي»(17).

فالنص الإبداعي عند الناقدة هو روح تتلون بتلون الأسرار والأقنعة، هي رحلة لفصل وتجاوز للطريق المعروفة والمألوفة؛ فالنص الإبداعي يحفز ذات الناقدة إلى السير في مجاهيله مغمضة العينين، واختراق حواجزه المتعددة ، وأسراره المتخفية. لكن السؤال المطروح: كيف للناقد/ الناقدة أن يتخطى ويتجاوز هذه الأسرار؟ وما أساليبه لطرح وأعمال آلياته في جسد النص الأدبي؟

تعتبر الناقدة خالدة سعيد أن مفتاح الدخول لعالم النص هو" القراءة"، ولكن أي نوع من القراءة هذه، وكيف تتعامل الناقدة مع النص؟ وما الأدوات والأساليب التي تستعملها، وتنشدها لتتمكن من قبض روح النص؟ تجيب الناقدة عن كل هذه الأسئلة فتقول:« القراءة هي أساس العملية النقدية عندي، لدي قدرة على الرؤية أثناء القراءة، أرى النص دفعة واحدة، العلاقات، الترابط الداخلي، الحركة، الأصداء...، ثم تأتي مرحلة إدخال كل هذا كلّه أو بلورته في نظام. وإذا النص هو الأساس»(18).

فالنص مهما كان جنسه هو أساس العملية النقدية، فكل علاقاته وترابطه وحركته الخفية تشد ذهن الناقدة إليه؛ فتنظر إليه نظرة فاحصة/ كليّة/ نظرة رؤيوية، نظرة استكشافية؛ هذه الرؤية البنائية للنص تشبه إلى حد كبير رؤية المصور الفوتوغرافي، أو المخرج السينمائي، فهي نظرة بانورامية ترصد كل هذه العلاقات/ الصور/ الانتظام اللغوي/ اللقطة/ المشهد ...الخ.

بعدها مباشرة تبدأ مرحلة جديدة من القراءة النقدية لدى الناقدة وهي المرحلة المُكنّاة بـــ: **الكتابة/ القراءة**؛ غذ تتشكل من الانطباعات الأولية، والإشارات الأساسية، فـــ« الانطباعات الأولى تعطيني المفاتيح المناسبة للنص، المفاتيح هي الآليات التي تقدمها

الإشارات الأساسية التي تتمحور حولها دلالات النص، والتقنيات التي تكثف الدلالة وتمنحها حركيتها وخصوصيتها»(19).

فكل هذه المفاتيح والإشارات والتقنيات تكثّف الدلالة العامة للنص المراد نقده؛ فالقراءة هي الخصوصية الأولى نسهدها في جل كتب الناقدة، فدراساتها لمختلف الشعراء والشاعرات، مشرقا ومغربا، حداثة وتقليدا، تفعيلة وقصيدة نثر، كلها تصب في هذه القراءة المتميزة المتحررة من كل المناهج القديمة والحديثة، العربية منها أو الغربية؛ فالناقدة تمثل حلقة متميزة في النقد الأدبي النصي العربي، فهي تدق على النص فتهمس في بنياته وتزلزل أركانه وتعيد تشكيله خلقا جديدا، مختلفا، مغايرا، مشاكسا، مبتكرا، ومبتدعا.

هذا التشكيل نتلمسه في قراءتها المتميزة للشاعرتين المتميزتين، مختلفتين شكلا ومضمونا جمعتهما قراءة نقدية للناقدة هما:" زليخة أبو ريشة"، و" سنية صالح" ضمن كتابها " فيض المعنى" موضوع دراستنا، والسؤال المطروح: كيف كانت رؤيتها النقدية لهاتين الشاعرتين؟

ثانيا: الرؤية النقدية للشاعرة " زليخة أبو ريشة":

بادئ ذي بدء يمثّل كتاب" فيض المعنى" المتضمن للدراستين النقديتين لكل من الشاعرة" زليخة أبو ريشة: والشاعرة" سنية صالح" كتابا/ بيانا/ رؤية/ استكشافا/ تأويلا/ تفكيكا للمعنى المتجذر في جينولوجيا الشعر المعاصر؛ فكتابها تضمن العديد من الدراسات الشعرية بدءا برائد قصيدة النثر" أنسي الحاج" إلى" محمد بنيس" مرورا بشعراء آخرين كـــ: " عبد العزيز المقالح"،" وديع سعادة"... وآخرون.

ضمن هذه الدراسات النقدية تبرز لنا دراستين لشاعرتين، هاتان الشاعرتان مختلفتين شكلا وجمالية وشاعرية، فكيف كانت نظرة/ رؤية/ الناقدة النقدية/المعرفية/ الشخصية لهاتين الشاعرتين؟

على غرار الدراسات النقدية النسوية تبرز دراسة" خالدة سعيد" للشاعرة" زليخة أبو ريشة" متجددة، متفردة، مغايرة لكل الدراسات، فهي تنطلق من النص/ القصيدة / الديوان واليه تعود، فدراستها حملت عنوان" زليخة أبو ريشة كتاب الدهشة"، لكن ما الدهشة التي انطلقت منها الناقدة لاكتشاف أسرار ومجاهيل هذا الديوان، تقول الناقدة في هذا المقام: « تنطلق أشارات الأسرار، في كتاب زليخة أبو ريشة دفتر الرائحة منذ العنوان، ثم تأتي

التعريفات التالية، وما يتبعها من نصوص متعددة، لتعظم السِّر وتكشف عن هوية مجاز " يحيل الرائحة" وتحولاتها إلى أمواج للدهشة ونهود إلى الحلول»[20].

فالدهشة الأولى كانت سرا من أسرار الشعرية والجمالية للكتاب، فالعنوان مفارق لطبيعة النصوص الشعرية المألوفة؛ فهو مزج بين متناقضين: دفتر/ رائحة، وجمع بين محسوس ولا محسوس، إنه الرائحة المنبعثة من المجاز، من أمواج الحس، ومن نهود الحلول بحسب تعبير الناقدة، لكن أي أسئلة ستطرحها الناقدة" خالدة سعيد" على هكذا مجاز؟

تسأل الناقدة على نص" دفتر الرائحة" الأسئلة الآتية:« لكن هل تضيء هذه الفقرات سرّ العنوان؟ أم تقدّم مفتاحا غامضا للغة زليخة المجازية الشعرية المتمردة المجنحة" حمالة الأوجه"؟»[21].

نلحظ بأن هاذين التساؤلين الإشكاليين يفتتحان لرؤية الناقدة لهذا الديوان/ الكتاب فتوصيف الناقدة للعنوان هو رؤية داخلية متميزة لما يحمله من أسرار وضلال للديوان، فدهشة المفارقة تأخذنا إلى اللغة حمالة الأوجه، فاللغة التي كتبت بها الناقدة هي القراءة في اللغة، في إشكالية التمرّد وهذا لتوازي كتابة الشاعرة، تقول الناقدة في هذه الجمالية الأدبية للعنوان وتفرعاته في جسد النص الشعري:« العنوان هو التعريف الشعري الذي يماهي بينه وبين السحر ويسربله بالغموض، وحضوره المتكرر في العناوين الفرعية والنصوص، يستدعي وقفة، مهما قَصُرَت»[22].

فهذه الوقفة ومهما قصرت بتعبير الناقدة تحاول فيه فتح ذهن المتلقي، وتذوق رائحة القصائد بدءً بالعنوان، فالنص مسربل بغموض مجهول يرتقي في:« لغة إلماحيّة وإشارة إلى مراتب وأحوال عشقيّة ترسم قوس الوله متصلا بين وجد المتصوّفة والهيام الدنيوي» [23].

هذا أنها المتميزة لشاعرة تفتح لرائحة الدهشة عند الناقدة؛ فالناقدة تقفز على حبل اللغة لتوازي لغة الشاعرة في عناق لغوي؛ فتأول الرائحة المنبعثة من نص الشاعرة" زليخة أبي ريشة" إلى رائحة وجود، هويّة، كينونة، جنون إبداعي، وجدٍ صوفي، هيام في مراتب الخلود:« حتى كان الرائحة رتبة ثانية من الوجود، رتبة ثانية من حضور المادة، هي رتبة السفر والتحول واللقاء، رتبة المادة غير المدية، والجسد فوق الجسدي (...) أنها:... الرائحة الهوجاء المفترسة/ التي/ للحياة»[24].

فالكاتبة" خالدة سعيد" تتقصى، وتتشمّم الرائحة المنبعثة من الدفتر المخزن لعواصف الهوجاء، للدلالات المنقطعة، للتداخل الأثيري بالمحسوس وتشابك مراتب الوجود:« لأن الشاعرة تضيئها بصور وحالات مبتدعة وتقترح لمقامها أبعادا لم تخطر للقاموس، على سعة معانيها فيه.

رائحتك التي تهدل فيها مع الحمائم الكمنجات»[25].

فلغة الشاعرة الإيحائية والمجازية والمفارقة لعادة تشد ذهن الناقدة فتُسْكِنها وجدًا وألقًا صوفيا، ولهذا جاءت الدراسة النقدية تجاوزا لمراتب الخيال وبحثا في معنى النصوص المطعمة بفيض لا متناهي من المعاني وخروجا عن المعتاد من الدراسات؛ فالناقدة تعيش حالات من الدهشة؛ إذ تقول:« والحق تدهشني حرية زليخة أبو ريشة في التنقل بين صفحات من تاريخ أسلافها في الطرق الصوفيّة، وصفحات من أحوال العشق الزمني. بل أنها تبني مآثرها وخصوصيتها على هذا السفر الحر بين العوالم»[26].

هذه الدهشة المتأتية من بحث أركولوجي في طبقات نص منفتح على عوالم الصوفية الذي تحاول الناقدة اصطياده بتتبع لمدارات ودروب المعنى المجازي/ الإيحائي/ الكنائي لهذه السلالات والمسالك ومقامات الصوفية التي تنتمي إليها الشاعرة زليخة أبو ريشة جدا وأبا ووالدة:« من هنا يمكن القول أن هذا الكتاب رحلة متفردة لشاعرة من سلالة المتصوفين والمتصوفات العالمات، اغتذت من الموروث، كما امتلكت قوة البيان وجمالية الابتداع والمفاجأة، فتحت النوافذ والمعابر بين أحوال الوجد وحرائق الهوى وتملكت سحر اللغة الصوفية لترتحل في أقاليم المحبة»[27].

فالشاعرة تعيش ارتحالا دائما في طبقات المتصوفة وظهر هذا الارتحال من خلال البحث والرؤية المتميزة للذات الناقدة؛ فــ" خالدة سعيد" تشق دروب الشاعرة لتدخل معها في عشق صوفي لرائحة الوجد والهوى، لحرائق اللغة الإيحائية، لسحر اللغة فاقترنت الذات الشاعرة بالذات الناقدة في صور متفردة ولغة جمالية:« أنها لغة عالية وصور مبتدعة، لاسيما في النثري من القصائد، لغة تقود الدفة بعيدا عن المألوف والمنطق لإطلاق طيور الدهشة»[28].

فاللغة الأدبية/ الجمالية/ الصوفية تتراكب لتشكل أقانيم بعيدة المعنى ترتحل إليها الناقدة في صور ابتكارية يميزها البعد عن المنطق والمألوف؛ فالناقدة" خالدة سعيد" تنقلنا

إلى دواخل الشاعرة باقتباسات من كتابها" دفتر الرائحة" لتفجر لغة الشاعرة إلى وجد عال وهي بذلك تمثل ربّان النقد في بحر اللغة الصوفيّة:« فزليخة أبو ريشة لا تخشى الصيد والمغامرة في غرائب الغابات . قادمة من تراث الهيام، من تراث الشعر الكلّي الذي يسافر في طلب الخارق. عالمها هو عالم الإنسان المتعدّد في وحدته، الواحد في تعدد أبعاده وآفاقه، يتحرّك عمقا وعلوًّا، ويأخذه نداء الغوامض»(29).

هذه هي الصورة النقدية للشاعرة" زليخة أبو ريشة" وهي صورة مدهشة للحياة ورؤية فلسفية للرائحة، للوجود الإنساني، للهيام الصوفيّ، للجمالية الأدبية.

ننتقل الآن إلى صورة مختلفة جدا للناقدة" خالدة سعيد" وهي صورة تمزج في طيّاتها بين النقد الذاتي والموضوعي؛ الذاتي تمثّل برؤية الناقدة إلى شعر أختها" سنية صالح"، والموضوعي هو رؤيتها المتميزة والمغايرة لشعر شاعرة لاذت بالصمت الأدبي، ولم تبرز إلا كذات متفردة من خلال شعر جمع بداخله: الأمل، الأسى، الحزن، المعاناة، وكل معاني السحر المجهول للشعر.

فجاءت رؤية الناقدة" خالدة سعيد" تقاطعا متميزا بين الذاتي والموضوعي، بين حبّ الشعر وحبّ الذات الشاعرة والنقد، فكيف تجسدت رؤية خالدة سعيد للشاعرة" سنية صالح"؟

ثالثا: الرؤية النقدية للشاعرة" سنية صالح":

يمكن القول بأن الرؤية النقدية لناقدة" خالدة سعيد" لشعر الشاعرة" سنية صالح" قد تمظهر في عدة رؤى وانطباعات فحاولت الناقدة تتبع خطوات الشاعرة، وهذا عبر طرح العديد من الأسئلة الموضوعية في وجهها الأول، والذاتية في وجهها المقابل.

جاءت نظرة خالدة سعيد في كتابها فيض المعنى جزءا لا يتجزأ من رؤيتها المغايرة والثاقبة لشعر" سنية صالح" إذ غلب عليها الطابع الموضوعي لشعر أختها. فسألت عن بداية كتابة الشعر عند" سنية صالح"؛ فجاءت الإجابة بنوع من التردد والحذر، وعدم القطعية بشان هذه البداية، تقول:« متى بدأت سنية تكتب؟ لا اعرف بالضبط. لم تقل مرة واحدة أنها تكتب الشعر، لم ألحظ أنها طالعت كتابا شعريا أو أدبيا. مجلة شعر هي أول ما رأيتها تطالع فيه. وقصيدة سان- جون بيرس التي ترجمها أدونيس ونشرت في مجلة شعر عام 1957 بعنوان" ضيقة هي المراكب" أدهشتها، هكذا قالت ولم تعلق بكلمة»(30).

نلحظ من هذا القول للناقدة جانبان، احدهما متخفي والآخر بارز، فتظهر الحميمية في قول الناقدة تارة، والموضوعية تارة أخرى، ولكن الملاحظ أن البداية الشعرية للشاعرة " سنية صالح" كانت مدهشة تحمل عمقا ونظرة فاحصة. فدخول الشاعرة عالم الشعر بحسب قول الناقدة كان بحصولها على الجائزة الأولى للشعر التي قدمتها لمسابقة جريدة النهار عام 1961، ونالت عليها جائزة الشعر فـ:« فجأة من الصمت تفتحت سنية. أزاحت الحجب والقيود. وتكشّف ما يسكن الدواخل (...) فاجأت الجميع، هي بدورها فوجئت بالنتيجة، بل خافت رغم إحساسها الضمني بقيمة ما تكتب»[31].

فالشاعرة لم تكن تصرّح أو تفصح، لم تكن تدرك ما تكتب، أكان شعرا أم نثرا أم معاناة أم ألما أم فرحا، كانت تكتب في صمت في غياب في أمل منشود، إذ يبدو:« أنها كانت تكتب الشعر في هامش كتبها المدرسية دون أن تهتم بالاحتفاظ بالنصوص أو عرضها على أحد. لم تكن تعتبر المسألة أكثر من" خربشة" عفوية شخصية»[32].

هذه الخربشة العفوية والذاتية أهلتها لتنال جائزة جريدة" النهار" فـ" سنية": « فاجأت الجميع لأنها كانت صامتة ودخلت دائرة الشعر بلا مقدمات ودون أي ادعاء»[33].

هذا الدخول كان واسعا وشاملا وفتحا لأمل منشود ومفقود في حياتها الشخصية، إذ ارتبطت حياتها بالخيبات والألم والمعاناة والصمت، فاختارت لجنة القراءة قصيدتها" جسد السماء" لتفوز بالجائزة؛ هذه الجائزة كانت البداية المفاجأة والدخول الرسمي لعالم الشعر من بابه الواسع فـ:« قصيدة" جسد السماء" قصيدة نثرية ونزعتها نزعة شخصية، وتكنيكها مناخي أكثر مما هو عضوي. فحين تقرأها تنفلش في نفسك صورا وتوترات ولا تحسبك هي في نفسها. (...) تتوصل إلى هذه النتيجة لأنها، مع غموضها ومع شخصانياتها تحمل كذلك التجربة الصادقة التي تمس الآخرين (...) مساس روحيا يصدر من جوها كلّه»[34].

هذا الرأي للشاعر" أنسي الحاج" المشرف يوم ذاك على الصفحة الأدبية لجريدة " النهار" وعلى الجائزة كذلك، فقد حظيت قصيدتها بصيت إعلامي متميز ودراسة معمقة من تلك اللجنة، حازت إعجاب كلّ من قرأها شعراء ونقادا ومثقفين وقراء، فقال عنها " عباس بيضون":« كنت أشعر أن القصيدة التي استهجنتها تسلك إليّ من طرق لم آلفها وتخاطب طبقات حسٍّ لم تكن بعدُ قد تحرّكت، ولم أكن سمعت لها نأمة أو جرسا. كانت القصيدة تأتيني من الجلد والإغماضة والصدى الداخلي ومن مطارح لم تكن بعدُ اعتادت أن

تكون مسالكا وطرقا. منذ ذلك الحين أذكر" جسد السماء" كقصيدة فريدة. لكنّ" جسد السماء" يتيمة من يتيمات الشعر الحديث ليس لها أب فارع ولا نسبٌ قوي. لذلك لا تُذكَر بين قلائده وحسانه، ولا يشار إليها في متاحفه فسرعان ما غدت له متاحف. ولربّما ظلم القصيدة أنها أطلّت من مسابقة كان احتكامها إلى لجنة جعلها دائما تحت الفحص، وحجزها عن أن تخرج إلى السباق الأوسع. ... والقصيدة على ما يُظنُّ أكثر قصائدها المنشورة تبكيرا. رُغم ذلك كرّستها شاعرة لكنها لم تزد عن أن تكون قصيدة التكريس. (...) فالقصيدة ظهرت في أوائل الستينيات ولم يكن مضى على القصيدة الحديثة عقد واحد. (...) أما" أنا" سنية فتقطن في المسالك الخفية تتبدّد وتكثر تاركة" الظلمة تولد بارتياح" والسرّ ينسدل عليها»[35].

فقصيدة" جسد السماء" للشاعرة" سنية صالح" قصيدة لامتناهية الدلالات، المعاني، التأويلات، هي رعشة تسري في جسد الحياة و:« مع ذلك لا يمكن أن نعرّف شعرها استنادا لحياتها. ولا نقدر أن نكتب حياتها انطلاقا من شعرها مهما كانت الوشائج بين المستويين»[36].

فقصيدتها تلك هي قصيدة بعيدة الأفق، تخاطب الحياة وكل عذاباتها، فتخترق الغريب والمألوف لتشدّه إلى الواقع الحياتي، هي غفوة حلم، وإحساس باطني بالألم، هي معاناة، هي قصيدة فريدة مبنى ومعنى، رؤية ورؤيا، شكلا نثرا ومحتوى شعريا، هي يتيمة من يتيمات الدهر/ الشعر كما دعاها الشاعر" عباس بيضون"، هي طفرة من الطفرات الشعرية في قصيدة النثر. والسؤال المطروح: كيف تجلت صورة الشاعرة/ الأخت الراحلة جسدا، الباقية روحا في ذهن وفكر الناقدة" خالدة سعيد"؟

يمكن التخيل بأن صورة الأخت والشاعرة صورة مؤلمة فيها من الذاتية الشيء الكثير، ولكن الملاحظ بان الناقدة" خالدة سعيد" قد حاولت التخلص من هذه الصورة والجانب الذاتي الذي يربها بالشاعرة الأخت، وهذا ما لمسناه في مقالها الموجود في كتابها فيض المعنى، فصورة الشاعرة طغت على كل الجوانب، إذ نجد بأن" خالدة سعيد" تجردت من تلك الذاتية وحاولت إبراز صورة الشاعرة أكثر فأكثر من صورة الأخت عبر إيراد محطات شعرية لشعرها، وكذا دلالات وأراء وأحلام للشاعرة فتقول:« في أول حديث لسنية صالح بمناسبة نيلها جائزة النهار للشعر، أجابت على سؤال: ما هو طموحك الشعري؟ بالقول: ليس لي أي طموح من أي نوع كان. أنا أعجز من أن أغيّر العالم أو أجمله

أو أهدمه أو ابنيه، كما يقول بعض الشعراء. أحسّ أنني كمن يتكلم في الحلم. ماذا يؤثر في العالم الكلام في الحلم؟ وباختصار ليس لي أي طموح من أي نوع كان. فقط استرخي واترك زحام العالم يتدافعني كشيء صغير جدا ولا وجود له. إنما احتفظ لنفسي بحرية الحلم والثرثرة»(37).

فصورة الشاعرة تتحرك يمنة ويسرى باتجاه ذهن الناقدة خالدة سعيد، فتارة تورد حديثا مقتضبا عن أحلام الشاعرة، وتارة تسرد لنا رؤية الشاعرة للحياة، للحلم، للأمل، وتارة أخرى تتدخل الناقدة لتبرز ما قاله النقاد والشعراء حول شعر وشاعرية" سنية صالح".

والملاحظ أن الناقدة" خالدة سعيد" تحاول الفصل بين الذاتين في كلّ حديثها، ولكن يطالعنها مقالها إلى الطبقات السفلى للمعنى، وذلك بإيرادها عتبا ولوما أكاديميا حول مواكبة النقد لشعر الشاعرة" سنية صالح" فتقول:« قُرئ شعر سنية على نطاق ضيّق وهو شعر على حدة وسط أمواج الشعر المتوالية. ومع انه يرسم عالما كاملا فلم ينظر إليه ولا مرة، في إطار شعر" الرؤيا" مع انه يحمل رؤيا، وان كانت ترتسم عفويا وتفترق عن الرؤى التي توهجت في الشعر يومذاك»(38).

فشعر" سنية"/ الشاعرة/ الأخت لم يُعط له المجال الأكبر والأوسع للدراسة النقدية؛ فهو شعر لم يُرَ بالشكل الصحيح، ولم يدرس كشعر رؤيوي، يحمل فكرا وروحا متألمة: « لأن لسنية صالح كيمياؤها الشعرية الخاصة شأن الشعراء الحقيقيين. شعرها قد وضع معنى حياتها في مدار العام الإنساني وأعطاه بعدا جديدا، بل كشف في ذلك المعنى عن ماهية مختلفة، وإن لم يَمْحُ فيها ضلال تلك الحياة. لذلك سأحاول الكتابة مؤمنة أن من المجحف في حق شاعرية سنية أن نحصرها في ضوء سيرتها مهما كانت حياتها فريدة وصاعقة. كما أنني لدى تقديمي موجز لسيرتها لن أتوسع في التفاصيل والوقائع، لأن لها مقاما آخر. وقد كتبت سنية صفحات من مُذَكَّراتها وجمعتها إلى رسائلها، واعتبر أن التصرف بأمر نشرها يعود إلى ابنتيها شام وسلافة الماغوط»(39).

فـ" خالدة سعيد" تحاول في هذا الكتاب المزج بين رؤيتها النقدية والذاتية للأعمال الشعرية للأخت/ الشاعرة الكاملة بحيث جمعت بين الرؤية الذاتية التي طغت قليلا على التقديم الخاص بأعمال" سنية"، وكذا الرؤية الموضوعية في مقالها المقتطف من هذا التقديم في كتابها فيض المعنى.

الملاحظ أن الصورة النقدية لـــ" خالدة سعيد" قد انعكست على رؤيتها لـــشعر أختها فأبرزت الجانب الموضوعي على الجانب الذاتي.

الهوامش:

(1)– خالدة سعيد، يوتوبيا المدينة المثقفة، دار الساقي، ط1، بيروت، لبنان، 2012، ص 09.

(2)– المصدر نفسه.(صفحة الغلاف الخارجي).

(3)– المصدر نفسه. ص 09.

(4)– خالدة سعيد(1988)،" أدونيس أدخلني إلى السياسة... وبدأت النقد بالمصادفة"، الحوار، ع 13، حزيران يونيو، ص 48.

(5)– المرجع نفسه. الصفحة نفسها.

(6)– المرجع نفسه. الصفحة نفسها.

(7)– المرجع نفسه. الصفحة نفسها.

(8)– المرجع نفسه. الصفحة نفسها.

(9)– المرجع نفسه. الصفحة نفسها.

(10)– المرجع نفسه. ص 49.

(11)– المرجع نفسه. الصفحة نفسها.

(12)– خالدة سعيد(2014)، فيض المعنى، ط1، دار الساقي للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ص 24.

(13)– المصدر نفسه. ص 25.

(14)– المصدر نفسه. ص 26.

(15)– المصدر نفسه. ص 40.

(16)– المصدر نفسه. الصفحة 39.

(17)– المصدر نفسه. الصفحة نفسها.

(18)– خالدة سعيد(1988)،" أدونيس أدخلني إلى السياسة... وبدأت النقد بالمصادفة"، المرجع السابق، ص 50.

(19)– المرجع نفسه. الصفحة نفسها.

(20)– خالدة سعيد، فيض المعنى، المصدر السابق، ص 99.

(21)– المصدر نفسه. ص 100.

(22)– المصدر نفسه. الصفحة نفسها.

(23)– المصدر نفسه. الصفحة نفسها.

(24)– المصدر نفسه. ص ص 100–101.

(25)– المصدر نفسه. ص 101.

(26)– المصدر نفسه. ص 103–104.

(27)– المصدر نفسه. ص 104–105.

(28)– المصدر نفسه. ص 110.

(29)– المصدر نفسه. ص 111.

(30)– المصدر نفسه. ص 237.

(31)– المصدر نفسه. ص 238.

(32)– المصدر نفسه. ص 237.

(33)– المصدر نفسه. ص 238.

(34)– المصدر نفسه. ص 239.

(35)– المصدر نفسه. ص 239–240.

(36)– سنية صالح(2008)، الأعمال الشعرية الكاملة، ط1، دار المدى للنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، ص 05.

(37)– خالدة سعيد، فيض المعنى، المصدر السابق، ص 240–241.

(38)– سنية صالح، الأعمال الشعرية الكاملة، المصدر السابق، ص 16.

(39)– المصدر نفسه. الصفحة نفسها.